

تَطَوُّرُ مَفْهُومِ التَّعَرُّيبِ فِي تُونِسْ

الدكتور المنجي الصيادي

العربية باعتبار ناحيتها الثقافية والسياسية ، الغاية التي يتجه كل عمل فكري أو اجتماعي في تونس الى تحقيقها ، ففي ربيع الاول 1315 ، يناير 1946 ، اسست الجمعية الخلدونية (1) معهدا للدراسات العالية باسم معهد البحوث الاسلامية .. »

واثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت المدارس الحكومية مغلقة اثناء فترة الاحتلال النازي بتونس ، فأسس مدرسو الجامعة الزيتونية نواة لتعليم قومي في بعض المدارس القرآنية الحرة ، بوسائلهم الخاصة . فكان العدد الكبير من حاملي الشهادات العلمية الزيتونية قد سد - ولو بصورة مؤقتة - الفراغ الذي تركه المعلمون الفرنسيون الذين استدعتهم حكومتهم للخدمة العسكرية . فالفراغ الذي نتج عن غلق المدارس المعروفة بالمدارس الفرنسية العربية ، وقع تعميمه جزئيا بفضل الوعي الذي اتصف به المدافعون عن سلامة اللغة العربية . وكان لهؤلاء ان يفكروا في تلك الظروف العصيبة . ان انحسار رقعة الثقافة الفرنسية لم يكن بالكارثة

العوامل التاريخية : ان الجو السياسي العام في العالم العربي اصبح يتخذ شكلا جديدا ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وذلك بفضل تأسيس جامعة الدول العربية ، التي فرضت نشاطاتها الجديدة السياسية منها والثقافية ، اسلوبا جديدا في العمل والتفكير ، لم يعدها العالم العربي من قبل ، فأدى ذلك الى قيام وعى بمكانة اللغة العربية في التبادل الفكري .

وتونس كبقية البلدان العربية المستعمرة الاخرى ، صارت تنظر الى هذه النافذة المفتوحة بأمل وشوق . فهي تتعلق اصلا بكل ما يرد اليها كيانها العربي . واهتم الحزب الحر الدستوري التونسي لاول وهلة بنشاط الجامعة وقرر فتح مكتب اتصال بالقاهرة . ويقول المرحوم الشيخ الفاضل بن عاشور ، مؤلف كتاب « الحركة الادبية والفكرية في تونس » ، وهو عبارة عن سلسلة من المحاضرات القاها بمعهد الدراسات العربية العالية (القاهرة) ، 1956 ، ص 206) ما مفاده : « واصبحت الجامعة

(1) سننشر قريبا دراسة لنا بالفرنسية عن « اولى الجمعيات القومية العصرية بتونس ، الجمعية الخلدونية » ، (1896 - 1958) ، بالدار التونسية للنشر .

لكن ادارة التعليم العمومي حافظت على منهجها فكانت تطبق تدريجيا وبكل حذر التعريب الجزئي الذي لايس جوهر تعليم الفرنسية ، مخافة ان ينخفض المستوى . فتواصل التعريب الى السنة الرابعة . وفي نفس الوقت كانت تبث الشكوك في صلاحية العربية للقيام باعباء التعريب (مشكلة العدد والمعدود في دروس الحساب مثلا) فقرر الاختصاصيون التونسيون الوقوف على الساكن ، مثلا عند العد الشفوي واستنبطوا المصطلحات في مبادئ العلوم ... وفي سنة 1950 ، شرع في تعريب مبادئ العلوم ، اذ لوحظ ان التعريب في هاتين المادتين الحساب والعلوم) « يسمح بتعليم مباشر لا يتطلب اى تدريب مسبق لمصطلحات معينة » . فكانت النتيجة الهامة الحاصلة فعلا ان الاتسام التى طبق فيها التعريب ، وفق النظام الجديد ، « على سبيل التجربة » نمت من امكانيات التليذ في استعمال العربية ، اذ ان تعليم الحساب ومبادئ العلوم باللغة الام امد الطفل التونسى بحصيلة من المفردات التكميلية التى تثرى افكاره وتزيد من مقدرته على التعبير بالعربية . والمؤلم ان توقف التجربة تد كبح من جماح هذا الكسب اللغوى ، لكن التأييد الذى تم لها اثبت ان هذا النوع من التعريب ، الذى حصل عن طريق المحاولة فقط ، التى لا تكتسى صبغة نهائية ولا ترمى الى التعميم ، انما يتصف بالشذوذ ، اذ هل يعقل ان يجرب تعليم اللغة الفرنسية على الاطفال الفرنسيين ؟

ولذا ، كان من مخاطر التعليم الثنائى انه كان يفرض على الطفل التونسى ان يبقى بالمدسة الابتدائية سبع سنوات ، بينما الطفل الفرنسى لايتجاوز مرحلة الخمس سنوات بالمدارس الفرنسية بتونس .

مكنت فاتحة عهد الاستقلال من تحويل المناهج تحويلا عميقا جذريا ، بحيث صارت تونستها امرا اكيدا ملحا . ولذا كانت الفترة التى امتدت من 1955 الى 1958 مرحلة تفكير وتقرير لهياكل قومية للتعليم ، فصار من المصلحة الحيوية توحيد البرامج والمدارس حتى لا يبقى الا صنف واحد من التعليم القومى بالبلاد التونسية . فنتج عن التونسة تحويل جوهرى في المناهج التى اصبحت تعتمد على الواقع

كما تصور البعض ، بل ان هذه الفرصة الساتحة مكنتهم من القيام ببادرات حثتها الظروف . فسمح لعدد من حاملى شهادات اللغة العربية بالقيام بمحاولة لتنظيم تعليم وطنى معرب . وافتدأ بهم انشأت جمعية الشبان المسلمين مثلا مراكز لتعليم العربية بتونس ويدخل البلاد .

ومن هذه الوجهة ، كانت هذه العملية الهادفة الى تقويم العربية من جديد باعنا على ارساء قواعد لاصلاح التعليم ، اتخذتها الادارة المختصة التى كان يشرف عليها مدير فرنسى . على ان بواذر هذا الاصلاح فرضتها رغبات الوطنيين المتعلقين بتعريب المدرسة الابتدائية الفرنسية العربية .

التعريب في المرحلة الابتدائية :

تم هذا الاصلاح ، لكن بصفة تجريبية تدريجية ، فلم يستجيب اصلا لمطامح اسرة التعليم المنصوية تحت لواء نقابتها القومية ، « الاتحاد العام التونسى للشغل » ، التى الحت من بداية سنة 1946 (وبعد القيام بتخطيط شامل لتعريب التعليم) على تعريب المواد العلمية في التعليم الابتدائى ، حتى توزع ساعات التعليم بصورة اكثر عدالة (اذ ان ساعات العربية لم تكن تتجاوز التسع من 30 ساعة في الاسبوع) . لكن المشروع لاقى اعتراض الاعضاء الفرنسيين في مجلس التعليم العمومى على انه وقع تعريب مرتجل سريع لتعليم الحساب في السنة الاولى الابتدائية . فالبرامج لم تصل الا في شهر ديسمبر الى المدارس ، ولم يقع تهيئة المعلمين لتطبيقها . ورغم هذه العوائق المصطنعة تحسن معدل اللغة العربية ، بعد الاطلاع على امتحان المستوى الذى اجرته المصالح الادارية على تلاميذ السنة الاولى .

فصوت الاعضاء التونسيون بالمجلس المذكور لفائدة مواصلة التجربة بينها الح الاعضاء الاجانب على ابقاء العربية في اطار التسع الساعات . ولذا تقرر دعوة مؤتمر قومى لينظر في وضعية التعليم والثقافة الوطنية ، تحت اشراف ويتأييد المنظمة النقابية التونسية ، التى كانت تعتقد منذ البداية ، ان تعريب التعليم هدف يفرضه الواقع القومى ، وهو يستجيب لرغبات الامة ، التى تريد الحفاظ على شخصيتها مع التفتح على مختلف التيارات الحضارية العالمية .

القوى . على ان المفهوم الجديد للتونس لم يعد ينحصر في اللغة ، بل تجاوزه الى « توطين » المناهج والمقولات حتى تتشبع الاجيال الصاعدة بالروح القومية .

مار التعريب يتضمن وجوبا تعميم العربية في جميع المراحل التعليمية ، بينما لم يتم فعلا الا في السنة الاولى والثانية من التعليم الابتدائي . لكن فترة 1956 الى 1958 اكدت الاتجاه الذي يعتمد أولا وبالذات على مقدرة المعلم على التكيف مع الوضع الجديد . والعمل على تطبيق التعريب (على ان تكوين المعلمين كان يختلف ، فمنهم من كانت لغة تكوينه الفرنسية ومنهم من كانت لغته العربية ومنهم من تكلمون بلغتين) . فكان العمل الاصلاحى يهدف الى توحيد اصناف التعليم وصبها في تيار التعليم القومى الموحد (كان يوجد تعليم زيتونى ومدرسى وفرنسى وحر ...) والواقع ان المدرسة الابتدائية صممت لها برامج للحاضر والمستقبل . فهي تضمن ارساء قواعد الثقافة ، بفضل تعريب المواد ذات الصبغة الثقافية كالتاريخ والجغرافيا ، وبقيت السنة الاولى والثانية حتى الآن تلمتى التعريب . ولا يشرع في تعليم الفرنسية الا في بداية السنة الثالثة الابتدائية .

والشعور السائد والمبنى على التجربة اثبت ان تعليم الفرنسية ابتداء من السنة الاولى من التعليم الثانوى يبقى التلميذ في حالة ضعف لا تسمح له بمواجهة التعليم العالى باللغة الاجنبية .

التعريب في المرحلة الثانوية :

بفضل الاصلاح الذى شرع في تنفيذه ، بداية من اكتوبر 1958 ، وقع انشاء ثلاث شعب ، الشعبة التى تستعمل العربية كلفة تثقيف وتدریس الموائد العلمية . فاصبحت الفرنسية تدرس كلفة حية في هذه الشعبة التى يرمز اليها بحرف (ا) . واما شعبة (ب) فتستعمل اللغتين وتدرس العلوم بالفرنسية . ونجد اخيرا شعبة (ج) التى تغلب الفرنسية وتدرس العربية بها كلفة حية .

شرع منذ اكتوبر 1958 في تهيئة الظروف التعليمية الملائمة للتعليم العربى في شعبة (ا) . وقد

تم هذا الامر بفضل الاشغال الفنية التى سبقت وسالرت التجربة ، التى كان من المتوقع ان تدوم عشرين سنة ، حتى ترسخ اللغة العربية ، بصورة نهائية ، مع انه لم يتم تكوين شعبة مماثلة بالتعليم العالى تعد الاساتذة المختصين للثانوى ، لربط المرحلتين من الوجهة التربوية (لم تفتح الجامعة التونسية ابوابها الا بداية سنة 1960) .

وقد تم وضع قوائم من المصطلحات الخاصة بالعلوم الطبيعية والبيولوجية وظهرت الصعوبات في مجال تعليم العلوم الفيزيائية وما تفرع عنها . واول ثائمة تم انجازها كانت معجبا للرياضيات ، وهو الاول من نوعه في تونس . وقد وقع استغلال الكتب المدرسية الفرنسية في العلوم وكذلك استفيد من المصطلحات المقررة في البلدان العربية ، وكذلك من الكتب القديمة (مصباح العلوم للخوارزمى ورسائل اخوان الصفا- ومعجم ابن فارس ، مقاييس اللغة) . ووافقت اللجنة المختصة على القوائم التى رضيت عنها البلدان العربية ، وعند اختلاف الآراء ، يتم الاختيار على اقرب مفهوم للمدلول الاجنبى ، وهذا الحرص حتى في مجال الرياضيات ، التى اجبرت المدرس على احترام القوائم المتفق عليها ، بفضل قة مصطلحاتها . وذلك لتلاى كل بليلة فردية في افكار التلاميذ . وقد تم منذ 1950 ، انجاز قائمة مصطلحات العلوم الطبيعية واستخدمت في الشعبة العلمية ، بالجامعة الزيتونية ، مما تسبب في تدعيم نشر التعريب في هذا المجال . على ان عدة اساتذة كانوا يجذبون مصطلحات معينة اتقنوها في احدى الجامعات بالشرق العربى ، فحصلت فوضى اضرت بسير الدروس ومستواها ، خاصة عند انتقال التلميذ من سنة الى اخرى ، فيلقنه الاستاذ الجديد مفاهيم اخرى ..

وقد بحثت اللجنة المكلفة بجمع المصطلحات في العلوم الطبيعية في الالفاظ القديمة والحديثة واتجه اختيارها دوما الى اللفظ الاكثر دقة والذى لا يستوجب شرحا . فترجمت عدة الفاظ اجنبية وادبجت عدة مصطلحات استمدتها من اللغة العامية ، ولا يقبل اللفظ الفرنسى الا في المرحلة الاخيرة (مثل اميب ، بازالت ...)

المراجع اللازمة . فكانت هذه العوامل مجتمعة تشكل عوائق فعلية منذ البداية ، فادت الى تعجز العاملين على انجاح التجربة . كان التلاميذ يدرسون مثلا المصطلحات بالفرنسية وفي الوقت نفسه لم يكونوا متعلمين من هذه اللغة ، اذ انهم يدرسون الفرنسية كلفة حية . وكانوا يحضرون دروسهم وتمارينهم على مراجع فرنسية . ورغم كل هذه المصاعب اثبتت نتائج امتحان شهادة انتهاء التعليم الثانوي فعالية تدريس العلوم بالعربية ، كما تم ذلك في الابتدائي . (56 ٪ من الناجحين في دورة 1966) . والملاحظ ان التعجيل بتعطيل هذه الشعبة لم يمكن من التروى في مفعول هذه التجربة ونتائجها . وتبعاً لذلك ، لم تسمح المدة القصيرة التى مرت بها الشعبة المعربة بتوسيعها وتعميقها . كانت النتيجة ان وقع تضيق في مجال الدراسات العلمية والرياضية بالعربية ، في المجلات والتأليف والحديث .

وخلاصة القول اعتبر بعضهم ان الشعبة المعربة لم تعد تمثل الا اختياراً تقليدياً قائماً على تقييم الماضى بالنسبة للحاضر والمستقبل . اما فيما يتصل بالمستقبل ، فان مصير المتخرجين من هذه الشعبة ، كان يتقرر داخلها ، اذ ليس في امكان هؤلاء الالتحاق بالشعب التقنية أو الاقتصادية التى تدرس بالفرنسية وكذلك الالتحاق بالتعليم العالى معلقاً بابجاد شعب عليا معربة ، وفي مجال التشغيل ، كانت الميادين محدودة ايضاً بالنسبة لهم . وهكذا بدأت تتبلور المصاعب التى تواجه ككل عمل يهدف الى سن تعريب شامل ، اى الى تغيير اوضاع قائمة ، ضمنت فعاليتها بفضل طول الزمن . ولذا اعتبر التعريب مغامرة من هذه الزاوية ، فهو مغامرة بالاجيال ومخرة لامحالة لاحقة بمستقبلهم ، اذا لم تقع تهيئة الاسباب والظروف التى تضمن النجاح . على ان افترض نجاح تجربة جديدة مسبقاً امتدت على فترة زمنية قصيرة واشترطت النجاح لمواصلتها بعد من قبيل الافتراض المحض ويعنى تجاهلاً للواقع . فمعيار العمل يختلف عن بناء النظريات ، مهما كان شاملاً . ولذا بقى الباب مفتوحاً لتنفيذ الحل المختار : اما الثنائية اللغوية واما تعريب التعليم ، بحيث تشمل العربية مختلف الدرجات حتى تمكن هذه اللغة من القيام بدور المحرك في مستوى الفكر المبدع والفكر المقلد . ويترتب على هذا الاختيار ان التعريب يعرف

أما في العلوم الفيزيائية ، فتسد استعملت المصطلحات التى وافقت عليها البلدان العربية ، فبعثت الى الوجود عدة عبارات مركبة ووقع توليد بعض المصطلحات والنتاج المختصون الى الحرف الاول او الثانى للاشارة الى الرموز ، سواء فسى الفيزياء او الكيمياء ، حيث اضيف عدد كبير من الرموز والعلامات للاشارة الى العناصر واسماء المعادن ، مما سهل على الاساتذة تهيئة دروسهم .

وبالجملة ، ادت العربية دورها كاملاً في هذه الشعبة ، ولقنت العلوم والرياضيات بواسطتها ، في المدارس التى تمكنت الادارة من تسديد مطالبها من وجهة الاساتذة والمصادر الاجنبية او المعربة . وكان يشترط على المرشحين ، بالاضافة الى اتقانهم العلم الذى يدرسونه ، ان تكون لهم دراية تامة باللغة العربية . وتعتبر هذه الشعبة اللبنة التى كان يمكن بفضلها تعميم التعريب . وقد تقرر فعلاً توسيعها ، كلها امكن تهيئة اطارات معربة ، في مقدورها تدريس العلوم بالعربية . هذا ما اكده رئيس الدولة في خطاب له بتاريخ 15 اكتوبر 1959 . الا انه بعد سنوات من مواصلة التجربة ، لم تعط شعبة (ا) كل النتائج المرجوة وتقرر بداية من اكتوبر 1967 ضمها الى الشعبة الثنائية اللغة ، المعروفة بشعبة (ب) ، بحيث وقع توحيد اصناف التعليم الثانوي بصورة فعلية . فتوحدت المناهج الفرعية في نطاق تعليم سبق ان توحد في جوهره وانواع مدارسه منذ فجر الاستقلال .

فالمؤيدون للتعريب اعترفوا بفشل جزئى لهذه العملية الاولى من نوعها ، اذ ان التعليم لم يكن معرباً اصلاً بل مر عن طريق الترجمة لكن ليس لنا ان نتعلل بهذا الاخفاق لتعجز العربية في قيامها بنقل الفكر العلمى والرياضى ، وكان يوجد من الناقدين من راي ان الثنائية المعربة عبارة عن منفذ لمن كان دون المستوى في الفرنسية . فقد قيل ان هذه الشعبة تنتدب اساتذة ناتقى التكوين . والواقع ان هذا المشروع وقع التسرع في تعميمه وتطبيقه بدون تهيئة للاسباب التى تساهم في انجاحه . فقد عملت هذه الشعبة بدون تدرج وبدون اعداد مسبق للاساتذة المختصين والمعربين في آن واحد ، وبدون تحضير

على انه اتجاه مغاير للمذهب التربوي يؤثر في تكوين المعلم والمتعلم . وكما قال المأسوف عليه الاستاذ بلاشار ، في محاضرة القاها اثناء زيارته لتونس سنة 1957 ، « لا رجعة لمجلة التطور . بل يجب ان تتفتح اللغة العربية وتتكيف حتى تقبل مصطلحات التقنيات والعلوم الجديدة . ولا يقع هذا العمل التكييفي او بالاحرى الاثرائي الا باعتبار حياة اللغة والحياة فقط » . كان هذا الراى يعد موتفا ثابتا للنخبة المتخرجة من المدرسة الصادقية (المؤسسة سنة 1875) ، اذ كانت تعتقد ان العربية لغة لتدريس العلوم بجميع المراحل . وعوض ان تلقن المفاهيم العلمية بالفرنسية ، من المنطق ان تعلم في اطار تدريس العربية ، مع منح الفرنسية مقام لغة حية تدرس قبل لغات حية اخرى . وكانت النية المعتودة ترمى الى الاقتداء بها انجز في سوريا ومصر ، في ميدان التعريب . لكن القرار الحاسم كان يتأرجح بين تطبيق تعريب تدريجي وبين تعريب شامل عاجل لا يعرف بالضبط من يقبل بتحمل اعبائه ومواجهة الاخفاق الذى لا شك انه ينتظر كل ارتجال يحتل مكان الاعداد العلمى الذى يسبق ويهوى لكل تنفيذ اسباب النجاح .

وكان الواقع يحتم احترام مصلحة المتعلم قبل كل اعتبار آخر . ثم تعتد امكانيات اللغة الراهنة والمستوى الذى فى امكان المعلم ان يسمو به ويرفع من قيمة دروسه ، فى حدود التكوين الذى كانت تسمح المناهج المقررة فى مدارس ترشيح المعلمين او خارجها (تهيئة تربوية للمعلمين والاساتذة فى تربية وفى فترات مستعجلة) .

من المعلوم بداهة ، وهذا ملحوظ فى البلاد العربية على مختلف اوضاعها التعليمية والثقافية ، ان العلاقة القائمة بين الشخصية القومية ومعرفة اللغة العربية وثيقة الارتباط . بلغة مثالية تسبو بالانسان العربى الى مستوى العقل والوجدان معا ، وهذا الامر يثبت امام صعوبة النحو والقراءة والكتابة والرسم ... لان اللغة موجودة فى اللاشعور تحرك المثقف الى التعمق فى دراستها كعامل من عوامل اندماجه فى مجتمعه المحلى . كان التونسي الذى يقتن لغته العربية اثناء عهد الحماية الفرنسية ، يشعر بالرابطة التى تربطه بغيره من الناطقين بهذه اللغة

فيستبد من هذا الوعى احساسا بالطمأنينة ينمو ينمو معرفته للغة التى لا تقف عند حد حفظ الاشعار والتطلع الى المؤلفات الادبية . فالنصحي بالنسبة اليه ، بفضل جدتها وصعوبتها ، تعتبر فى نظره تجاوزا للعابية التى يستعملها رغبا عنه ، وفى هذا الاطار ، يحسن تقويم العربية والتساؤل عن مدى تاثيرها بالحياة المصرية ، وعن مقدرتها الكامنة للتعبير عن مقومات المدنية المعاصرة ، وذلك لدرد خطأ من يفكر فى تعويضها بلغة اجنبية فى مجال العلوم ، اذ ان هذا الحل يشكل حجة دامية لافلاس العربية فى القيام بدورها كوسيلة للحوار مع العالم المعاصر . ولا يتأتى طبعا الحل عن طريق الخطب والتثبث بالتقاليد التى تضع اللغة فى قمص ذهبي ، خوفا من وتوعها فى انحلال مزعوم يجر عن تطويرها وتطويعها لنشر العلوم والمقومات الحضارية ، بل ان الواقع يحتم علينا اخضاعها لنواميس البحث العلمى الموضوعى ، حتى تتضح امامنا المستويات التى تتوارد بفضلها الحاجات العلمية فتسخر امكانيات اللغة للتعبير عنها ادى تعبير . ان النصيحة رهينة فترة زمنية معينة ، فتكون معبرة مبنية فى نفس تلك المدة ، ثم تصبح الاساليب البلاغية مع مرور الزمن عديمة المفعول : فهل فى امكاننا اليوم ان نكتب نصا مسجما — ولو كان ادبيا — بدون ان نجلب الشفقة او السخرية ؟

ولا يقف تطور اللغة عائقا فى سبيل المحافظة على التراث . وبالإضافة الى ذلك ، نلاحظ ان المصطلح العلمى يفرض علينا دقة مستمرة فى التعبير لانتجاوب مع استخدام المجاز والتورية ومختلف المحسنات . ولا يفيذ المصطلح ايضا الا اذا حصل على اجماع المعلمين الذين يجب عليهم ان لا يتذوقوه فقط من وجهة صياغته اللغوية ، بل ان يستعملوه مسجلين . ردود الفعل لدى تلاميذهم ، قبل غيرهم ، اذ ان هؤلاء هم اول المستهلكين المنتفعين بالمصطلحات ، وذلك حتى يستقر الراى عليها او يقع العدول عنها ، لان المصطلح مهما تأنقنا وتحرينا فى اختياره من الوجهة اللغوية ، لا يدوم ولا ترسخ قدمه الا اذا ثبت فى وجه الزمن واستجاب فعلا لحاجات المستعملين . ويختلف محك البقاء ، كان يهزم المصطلح بعد قبوله وفهم دلالاته التى ترتكز على

محسوس ، او ان يقع التأكد عما تخلد في ذهن التلميذ من تصور دقيق يقابله ، ولا يرفض المصطلح العربى بل يواجه بالمصطلح الاجنبى ، خاصة فى نظام تعليمى قائم على لغتين . ونقول اجمالا ان المصطلح ، كما وقع تصويره فى تونس ، يجب ان يحاط باتمى الاحتياطات حتى يتع اقراره عن دراية ، بعد تنسيقه فى المستوى الوطنى والعربى . ولا ضير من ايجاد الصلة مع المصطلحات القديمة — ان وجدت — وما جد من مفاهيم العلوم والرياضيات ، لتلائم فوضى المصطلحات (1) .

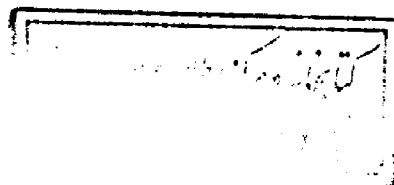
والواقع ان فترة الحماية شاهدت انطلاقا لجهودات مشتتة لبعث الفاظ اجنبية وقع قبولها ، بالإضافة الى استعمال طريقة مزدوجة تعتمد الاشتقاق والتوليد فقد شرعت الجامعة الزيتونية فى تجربة التعريب . فخصصت بداية من سنة 1947 وظائف للتعليم العلمى ، بمساعدة الجمعية الخلدونية فشجع هذا الاصلاح المحتشم الراى العام التونسى على المطالبة بتعريب التعليم ، خصوصا وان الاضراب الذى دام عاما كاملا (1950) حمل السلطة على التعجيل بانشاء شعبة عصرية تدرس فيها العلوم بالعربية . وكان التونسيون فى تلك الفترة يرمعون جميعا فى ارساء قواعد لثقافة قومية متصلة فى جذور تاريخ البلاد وجغرافيتها وتقاليدها العلمية ولذا صار التعريب ممكنا فى القرن العشرين الميلادى كما كان الشأن فى القرن الثانى والثالث (الهجرى) . فتساندت المنظمات القومية التونسية (مؤتمر الحزب الحر الدستورى ، ليلة القدر سنة 1946) الاتحاد العام للشغل واتحاد الطلبة (فى المطالبة بتكليف التعليم ببيئة الطفل وبلغته الام ، لان اتصاء العربية مناف لا بسط قواعد التربية ولا يمكنه الا ان يكون خاضعا لاعتبارات غير تربوية . فهذا التعريب الذى انبعث بالجامعة الزيتونية كان ركيزة اعادت لانشاء الشعبة المعربة فى التعليم الثانوى القومى ، التى وقع العدول عنها ، كما اسلفنا ، بسبب عدم تهيئة اطار التدريس لمواصلتها . وقد افادت ايضا فى ارساء قواعد التعريب بالجامعة (ولو بصورة جزئية فى ميدان علم التاريخ والاجتماع والحقوق) . ولذا اصبح

مفهوم التعريب يشكل تمة للاستقلال وكسل ما يعوق تطبيقه يؤخر لا محالة العملية بدون ان يحمل على العدول عنها نهائيا فى الواقع ، اذ ان الثنائية فى التعليم التونسى تنصف بالظرفية اكثر منها بالمذهبية . على ان الاهتمام انصب منذ سنوات على انجاز التعريب ، فانار خصوصيات كلابية ومناقشات لفائدة الانجاز او للترث فى التطبيق بدون ان نجد اثرا لاية معارضة مذهبية . ولعل الامر متعلق ، من وجهة نظر علمانية ، بتأصيل التلاميذ فى بيئتهم ، فيصبح التعريب مظهرا من مظاهر الاصاله ؟ ومفهوم الاصاله يبعث على الحيرة ، اذ لم يقف عند حد دلالة اللفظية ، بل تجاوزها الى الخوض فى العودة الى الشرائع القرآنية . ولعلنا ان يقول ان اللغة لا تشكل عائقا فى وجه من يرغب الاندماج فى مجتمعه .

ومنذ سنة 1956 لم تدع مجلة الفكر الرائدة فى مجال التعريب ، المشكل بدون ان تبحثه من جميع جوانبه . فهى تعتبر ان التعريب حتى لتتوهم الشخصية واسترجاعها وتتسائل عن تخصيص العربية لتعليم المناهج التقليدية ، فتبقى اللغة التقليدية ويطلق الميدان العلمى فى وجهها . وتتسائل ايضا (عدد يناير 1971) لماذا لم ينجز التعريب بعد 16 سنة مرت على الاستقلال ، ولماذا لم تضبط مراحله ، عوض ان يفضى الوقت فى المهارات اللفظية ؟ ولوحظ ان خريجى الجامعة الزيتونية تمكنوا من مواصلة دراساتهم العالية بدون مخاطر فائقان لغة اجنبية تتمثل باختصاصهم . ولذا من المفيد احياء هذه التجربة من جديد والوصول الى نتيجة هامة ، هى النجاة لطبقات الامة ، كما ان التعريب يسمح للمواطن بالارتباط برابطة قوية تشده الى ارضه والى التعايش مع مشاكل بلاده .

على ان التردد والرجوع الى الوراء لا مبرر لها ، اذ انه يفهم من ورائها الاعتقاد على الثقافات الاجنبية . والفارق فى التعريب بين الابتدائى والثانوى ، هو ان المرحلة الاولى مرت بتعريب يتجه عموديا ، من سنة الى اخرى بينما المرحلة الثانوية مرت بتعريب افقى ، شمل كل الشعبة المعربة .

(1) المتفق عليه تقريبا هو احياء المصطلحات القديمة اذا كانت صالحة — للسان العربى



على ان « هرم » التعريب لم يتبين له ائزان متكامل ، بسبب ثلة الاطارات المعربة . ولم يقرأ حساب لتعريب الجامعة ، اذ لم توجد بعد في سنة 1958 .

ومبعث الشكوك ، بعد بلورة الموضوع ، كان يكن في الالتباس الحاصل بين التعريب والرجوع الى الاصل الذى يعتبره البعض عودة الى العلم كما انتشر فى القسرون الوسطى . لكن المجال الحضارى يقتضى تونسة وتعريب الانفس والمناهج والعلوم الانسانية والمنهجية وموضوع البحوث الجامعية ، وبفضل هذه الجهود . تأثرت ولازالت تتأثر درجات التعليم الاخرى بهذا الاتجاه ، بدون ان يقع انصاء اللغات الاجنبية او التخفيض فى مستوى التعليم . ويحتم الحل الواقعى العمل على تعريب تدريجى ، تضبط آجاله ، اعتمادا على النتائج الحاصلة وعلى التصحيحات الواجبة ، للفضاء على العيوب التى لاتبرز الا فى مجال التطبيق . على ان التجربة التى شرع فى انجازها . بداية من (سنة 1958) : لم ترض الجميع . لانها كانت متحفظة ولم يتم الانفاق حتى الآن على مفهوم التعريب ، وعلى ما يحتويه من مؤثرات فى المجال التربوى ، وكذلك فى العادات المدرسية بالنسبة للمعلم والمتعلم . فهل نعرب مجموع النشاط التربوى والمدرسى والادارى او نعرب تعليم العلوم الصحيحة والرياضيات ؟ وفى هذه الصورة الاخيرة . يميل الاختصاصيون الى انجاز تعريب تدريجى مع حساب الاختناق المتوقع والذى حصل فعلا فى الشعبة المعربة .

وقد فتح مجلس الامة (ديسمبر 1971) بتونس باب النقاش حول التعريب . فسجل لاول مرة محتواه الرسمى الحكومى . وتمكن النواب من ابداء الراى وتركزت المواقف للأييد او للمعارضة . ولم تساعد الاختلافات على بعث الجو المناسب لبعث التجربة من جديد . يرفض المحافظون فكرة توليد المصطلحات الجديدة ويقبلون باستعمال القديم . ويحبذ المتطورون العربية الفصحى فى صيغتها الجديدة الحديثة . ويؤيد اتجاه ثالث التعريب مع المحافظة على الثنائية اللغوية فى التعليم . على انه

يوجد من عارض التعليم بلغتين ، اذ يعتبره ترافا بالنسبة لبلاد سائرة فى طريق النمو ، لانه يكلفها مصاريف مضاعفة . ولعل هذا الصنف من التعليم عامل على التخفيض من مستوى التلميذ ويستدل على ذلك بتزايد التلاميذ المتأخرين المنقطعين عن التعليم . ويمكن تطبيق حل يرمى الى ابقاء الفرنسية فى آخر سنة من التعليم الابتدائى والرفع من ساعات العربية ، لان عددا هاما من التلاميذ فى القسرى ينتظمون باكرا عن المدرسة ، فلا فائدة ترجى من ارهاقهم بتعليم لغة ثانية لن يجدوا فرصة لاستخدامها خصوصا وانه ليس فى امكانهم التفكير بلغة والتحدث باخرى .

والمهم فى الموضوع يتلخص فى ربط الصلة بين التونسة والتعريب . لانه يجب ان ينعكس هذان العاملان فى المناهج والكتب . ليسمحاً بابرار الشخصية التونسية التى تدعم امالتها بهذه الكيفية .

والواقع ان اللغة الاجنبية توافق مجتمعا استهلاكيًا . فتعلمها يثير موجة من الحرمان لدى الشباب فى البلاد . لكن عملية التأسيس تتدخل لادماج التلاميذ فى مجتمعهم .

وخلاصة القول ، ان العربية لايمكنها ان تحتل فجأة مكان اللغات العلمية ، اذ تعوزها المراجع العلمية المتجددة باستمرار . فهل نلجأ الى انتداب جيش من المترجمين ، يكون دائما لاهنا فى ملاحقة ما يستجد من مؤلفات علمية ؟ واذا ما جردنا المشكل من كل عاطفة ، حصل الاتفاق على مبدأ التعريب ولكن لن ينتهى النقاش والجدال فى ميدان التطبيق وليس القول بانفصال تدريجى للثقافة التونسية عن الثقافة العربية الا مجرد افتراض ، لان الرجوع الى الاصاله لا مفر منه ، ولان الحضارة العربية تحتوى على قيم انسانية ، وسيتم هذا الامر بمجرد ان تتحول اللغة العربية من اداة استهلاك الى اداة استكشاف علمى واختراعات . ويجب ان تكون العربية تحت طلب الناطقين بها فى مجالات الادب والعلم والتقنيات وجميع مجالات الحياة